

المبحث الثاني في معرفة الله

إثبات التوحيد

استدلّ العلماء على إثبات التوحيد بأدلة كثيرة و نحن نذكر نبذة منها :

الدليل الأول

عندما ننظر إلى العالم من منظار العلم و التحقيق، نرى أنّ مجموعاتهُ متماسكة و متناسقة كجهاز واحد ، و أنّ كل جزء من أجزائه وُضِعَ في موضِعِهِ المناسب له ، و أنّ كل واحدة من الثوابت و السيارات و المجرات تدور في فلكها الخاص ، من دون حدوث خلل في حركاتها أو تعارض في مسيراتها.

و من هنا ندرك بأنّ مهندس الكون و مدبّر الأمر هو إله واحد يشرف على نظام الخلق و الأمر و لا يوجد من يعارضه أو يخالفه في إدارة شئون العالم.

و يمكن شرح هذا الدليل بمثال بسيط :

حينما نرى لوحة فنية و فيها صورة طائر مثلا ، و هي متجانسة الألوان و متناعمة الظلال و تشيع الروعة في أرجائها ، لحكمينا بأنّ فنّانا واحدا قام برسمها و تنسيق أركانها. و لو تعدد الرسامون و رسم أحدهم رأسه و الثاني رجليه و الثالث جناحيه و هكذا ... ، لجاءت هذه الصورة أقرب إلى الكاريكاتير منه إلى لوحة فنية.

الدليل الثاني

لو كان للإله شريك ، لأرسل رسوله أيضا ، و أنزل كتابه السماوي ، و أعلن عن وجوده و عرف نفسه للبشر. لكن الأنبياء الذين أتوا بشريعة إلهية ، اعترفوا بأنهم مرسلون من قبل إله واحد ، و هو خالق الكون وحده لا شريك له.

الدليل الثالث

لو كان هناك إله آخر غير الإله البارئ ، فلا يخلو حالهما من أمرين : إما أن لا يحتاج أحدهما إلى الآخر في خلق العالم، أو يفتقر إليه.

فإن كان لا يحتاج إليه فوجود الإله الثاني عبث و غير لازم. و إن كان يفتقر إليه ، فيثبت الاحتياج و الافتقار في وجوده . و الحال أن الاحتياج إلى الغير عيب فاحش و نقص بارز لا يناسب مؤسس الكون و مبدع هذا الصرح العظيم بما فيه من الكبرياء و الجبروت و الكمال و الجمال.

بعد ذكر الأدلة التي تدلّ على وحدة البارئ سبحانه و تعالى ، نتطرق من باب الاستطراد إلى تكملة للبحث ، و هي محل المناقشة بين المسلمين ، لنوضح وجهة نظرنا تجاه الآخرين.

مظاهر التوحيد

هناك معاني و مجالي لتوحيد البارئ تبارك و تعالى ، و هي كالتالي :

1. التوحيد في الذات

التوحيد في الذات يطرح بشكليين ، هما :

أ_ إنَّ الله واحد ، وليس له مثل أو نظير. ، وهو التوحيد الذي ذكره البارئ في كتابه العزيز بصورٍ مختلفة ، كقوله تعالى :
(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)⁽¹⁾ .

وقوله في موضع آخر :

(وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)⁽²⁾ .

لكن قد يفسر هذا التوحيد الوارد في الآية بتفسير ساذج ينسجم مع أذهان عوام الناس ، فيأخذ صبغة التوحيد العددي ؛ وهو أن يقال : إن الله واحد لا إثنان .

(1) الشورى : 11 .

(2) التوحيد : 4 .

ومن الواضح أنّ التوحيد العددي لا يناسب مقام العظمة الإلهية .

ب - أنّ الذات الإلهية بسيطة لا تركيب فيها ، فإنّ التركيب في الموجود دليل على حاجته ، سواء كان التركيب في الأجزاء أو كان التركيب ذهنياً ؛ لأنّ التركيب في موجود معين دليل على حاجته إلى أجزائه ، والحاجة علامة الإمكان ، والإمكان يلزم الحاجة إلى العلة ، وكل ذلك ينافي وجوب الوجود .

2- التوحيد في الخالقية

التوحيد في الخالقية هو أحد مراتب التوحيد ، وقد أيده العقل والنقل . فدلّ العقل على أنّ كلّ ما في عالم الإمكان من الموجودات فهو عار عن كلّ جمال وكمال ، وأنّ كلّ جمال وكمال في الوجود فهو من منبع الفيض ، أعني الغني بالذات ، واجب الوجود . فكل ما نشاهده من الجمال والكمال فهو جماله وكماله تقدست أسماؤه .

وأما النقل فقد دلّت الآيات الكثيرة بصراحة على هذا النوع من التوحيد ، نظير قوله تعالى :

(قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)⁽³⁾ .

فعلى هذا لا يمكن أن يتصور خلاف في أصل التوحيد في الخالقية .

نعم ، يوجد تفسيران للتوحيد في الخالقية ، هما :

أ - إنّ كلّ ما في الوجود من نظام العلوية والمعلوية أو الأسباب والمسببات بين الموجودات فلا بد أن ينتهي إلى علة أصيلة هي علة العلل ، ومسببة الأسباب ، هو الخالق المستقل والأصيل لتمام المخلوقات ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وتأثير ما عداه في معلولاته تأثير بالتبع وبإذن الله ومشئته .

فالأساس الذي اعتمده هذه النظرية هو نظام العلوية والمعلوية في الوجود ، الذي توصل إليه العلم أيضاً . وفي نفس الوقت اعترفت هذه النظرية بأن جميع الكون متعلق بنحو من الأنحاء بالله سبحانه ، فهو الذي أبدع هذا النظام وهذا العالم ،

(3) الرعد : 16 . ونظير الآية 102 من سورة الأنعام : (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) .

وهو الذي أفاض السببية على الأسباب ، والعلية على العلل والتأثير على المؤثرات .

ب - إنه لا يوجد في الوجود إلا خالق واحد وهو الله سبحانه وتعالى ، ولا تأثير في الوجود لشيء على شيء ، وإنما التأثير منحصر في الباري جل وعلا ، فهو المؤثر في جميع الأشياء من دون واسطة ، فجميع الظواهر الطبيعية من آثاره سبحانه بلا واسطة شيء آخر ، حتى إن قدرة البشر في الأفعال لا تأثير لها أيضاً .

وعلى هذا فليس في الوجود إلا علة واحدة هي الله سبحانه وتعالى ، بل إن الله سبحانه هو القائم مقام جميع العلل الطبيعية التي توصل إليها العلم .

لكن هذا التفسير للتوحيد في الخالقية إنما يقول به بعض علماء الأشاعرة ، وأنكره آخرون منهم ؛ نظير إمام الحرمين⁽⁴⁾ ، والشيخ محمد عبده في رسالته في التوحيد ، حيث وافقوا التفسير الأول للتوحيد .

3- التوحيد في التدبير

لما كان الخلق منحصراً في الباري جل وعلا ، كان تدبير نظام الوجود منحصراً فيه أيضاً ، ففي الوجود لا مدبر إلا الله سبحانه وتعالى .

والدليل العقلي الذي يثبت التوحيد في الخالقية بنفسه يُثبت التوحيد في التدبير أيضاً .

وأما الدليل النقلي ، فقد دلّ القرآن الكريم في آيات عديدة على أن المدبر الوحيد في العالم هو الله سبحانه وتعالى ، كقوله تعالى :

(قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَبْعِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)⁽⁵⁾ .

ويجري نفس التفسيرين اللذين ذكرناهما للتوحيد في الخالقية هنا ، ففي نظرنا أن المراد من التوحيد في التدبير هو انحصار التدبير الاستقلالي به سبحانه وتعالى . وعليه فالتدبير بين

(4) الملل والنحل للشهرستاني ، ج 1 .

(5) الأنعام : 164 .

الموجودات المختلفة في العالم كلّها تديرات بالتبع ، وكلّها بإرادته ومشئته سبحانه وتعالى ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله :

(فَالْمُدِيرَاتِ أُمْرًا)⁽⁶⁾ .

4. التوحيد في الحاكمية

التوحيد في الحاكمية تعني أنّ الحكومة كحقّ ثابت لا يمكن إزالته مختصة بالله سبحانه وتعالى ، فهو الوحيد الذي له الحكم على الأفراد ، وهذا ما صرح به القرآن الكريم بقوله :

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)⁽⁷⁾ .

وعلى هذا الأساس يجب أن تكون حكومة الآخرين بمشيئته وإرادته سبحانه ، كي يقود الصالحون الناس إلى الهداية ، ويوصلوهم إلى شاطئ السلام ، وينزلوهم منازل السعادة والكمال ، كما يقول تعالى :

(يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ)⁽⁸⁾

5. التوحيد في الطاعة

التوحيد في الطاعة يعني أنّ من تجب طاعته ويلزم اتّباعه بالذات هو الله سبحانه وتعالى . وعليه فطاعة غيره من نبي ، أو إمام ، أو فقيه ، أو والد ووالدة ، أو... كلّها بأمره وإرادته سبحانه وتعالى .

6. التوحيد في التقنين والتشريع

التوحيد في التقنين يعني أنّ حقّ التشريع ووضع الأحكام والقوانين مختص به سبحانه . ومن هنا فإن القرآن الكريم يصف الحكم الذي يخرج عن إطار التشريع الإلهي بأنه سبب للكفر تارة ، وللفسق أخرى ، وللظلم ثالثة ، وذلك حين يقول :

(وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)⁽⁹⁾ .

(6) النازعات : 5 .

(7) يوسف 40 ، والأنعام : 57 .

(8) ص : 26 .

(9) المائدة : 44 .

(وَ مِنْ لَمَّ يَحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (10) .
(وَ مِنْ لَمَّ يَحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (11) .

7 - التوحيد في العبادة

أهم بحث في هذا النوع من التوحيد هو تحديد معنى العبادة ؛ فإن جميع المسلمين متفقون على اختصاص العبادة بالله ، ولا يجوز عبادة غيره ، وهو ما أكده القرآن الكريم بقوله :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (12) .

ويستفاد من الآيات الكريمة وجود أصل تشترك فيه دعوة جميع الأنبياء ، وتمايم سفراء الله سبحانه الذين بعثهم لتبليغ الأديان ، فالقرآن الكريم يصرح بقوله :

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) (13) .

فهذه الآية تبيّن وجود أصل متفق عليه بين الرسل وهو أنّ العبادة مختصة بالله سبحانه ، ولا يجوز عبادة غيره . وعليه فلا كلام في هذه الجهة ؛ لعدم الخلاف فيها .

إنّما الكلام في المعيار الذي نشخص به العبادة عن غيرها . فمثلاً تقبيل يد المعلم ، أو يد العالم ، أو يد أحد الوالدين ، أو أمثالهم من ذوي الحقوق ، هل يعد عبادة لهم ؟ أم أنّ معنى العبادة ليس هو مطلق الخضوع والتذلل ، وإنّما يجب أن يتوفر في الخضوع عنصر آخر كي يكون عبادة ، وما لم يتوفر هذا العنصر في حقيقة العمل فلا يعد عبادة ، حتى لو كان الخضوع في حد السجود .

والآن يجب معرفة هذا العنصر الذي به يكون الخضوع عبادة ، وهذه المسألة مهمة للغاية .

الفهم الخاطئ للعبادة

(10) المائة : 47 .

(11) المائة : 45 .

(12) الفاتحة : 5 .

(13) النحل : 36 .

عرّف بعض الكتاب العبادة بأنها «الخشوع»، أو «الخشوع الشديد». فواجهوا مشكلة في تفسير جملة من الآيات الكريمة ، حيث صرح القرآن الكريم بأننا أمرنا الملائكة بالسجود لأدم ، وذلك قوله تعالى :

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) (14) .

فالسجود لأدم(عليه السلام) كان بنفس الطريقة والهيئة التي كانوا يسجدون فيها لله سبحانه ، والحال أن السجود الذي سجدوه لأدم كان لإظهار وإبراز التواضع ، بخلاف سجودهم لله فإنه عبادة .

فيقع السؤال التالي : لماذا اختلفت حقيقة هذين السجودين مع اتحادهما في الهيئة ؟

ويبين الباري في موضع آخر من الذكر الحكيم أثناء سرده قصة يوسف(عليه السلام) أن يعقوب(عليه السلام) سجد لولده ، حيث يقول :

(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) (15) .

والمراد من الرؤيا في الآية هو ما رآه يوسف(عليه السلام) قبل ذلك في المنام حيث رأى أحد عشر كوكباً و الشمس و القمر له ساجدين ، والذي ذكره الباري عن لسان يوسف بقوله :

(يَا أَبْتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) (16) .

فمن تفسير يوسف(عليه السلام) وتأويله سجود أبيه وأهله له بما رآه سابقاً في المنام ، يتضح أن المراد من (أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا) هو إخوته الأحد عشر والمراد من (الشمس و القمر) هو والديه .

وبهذا يتضح أنه لم يكن السجود ليوسف من قبل إخوته فقط ، وإنما سجد له أبوه يعقوب(عليه السلام) أيضاً وهو نبي معصوم . فهنا يقع السؤال التالي : لماذا لم يكن هذا السجود - والذي فيه تمام الخشوع - عبادة ؟

(14) البقرة : 34 .

(15) يوسف : 100 .

(16) يوسف : 4 .

عذرٌ هو أقبح من الفعل

تحيّر الكتاب المشار إليهم سابقاً في الجواب عن هذا السؤال ، فقالوا : لما كان هذا الخضوع بأمر الله سبحانه وتعالى لم يكن شركاً .

لكنّ هذا الجواب ليس بناضج كما هو واضح ؛ فإنّ الله لا يأمر بالعمل إذا كانت حقيقته شركاً . فالقرآن الكريم يقول : (قُلْ إِنْ لِلَّهِ لَأَيُّمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَوْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)⁽¹⁷⁾ .

وأساساً فإنّ أمر الله بالشيء لا يغيّر حقيقة الشيء ، فإذا كانت حقيقة الخضوع لإنسان عبادة له ، ومع ذلك فقد أمر به الباري سبحانه ، فنتيجته هو الأمر بعبادته .

جواب الإشكال وبيان المعنى الحقيقي للعبادة

أتضح لحدّ الآن أنّ حرمة عبادة غير الله من موارد اتّفاقي جميع المسلمين ، وجميع الموحدين لله سبحانه . كما أتضح أنّ سجود الملائكة لآدم(عليه السلام) ، وسجود يعقوب(عليه السلام) وأولاده ليوسف(عليه السلام) لم يكن عبادة لهما .

والآن لننأمل في السبب الحقيقي الذي جعل فعلاً واحداً له نفس الخصوصيات عبادة تارة ، وخارجاً عن نطاق العبادة أخرى .

بمراجعة الآيات الكريمة يتّضح لنا أنّ العبادة هي الخضوع أمام موجود معين مقترناً مع اعتقاد ألوهيته ، أو نسبة الأفعال الإلهية إليه . ومن خلال هذا البيان يتّضح أنّ العنصر الرئيسي الذي يجعل الخضوع عبادة تارة ويخرجه عن حيز العبادة أخرى هو اعتقاد ألوهية ذلك الذي يخضع له ، أو أن ينسب الأفعال الإلهية إليه ، فإذا اقترن الخضوع بهذا الاعتقاد اكتسب صبغة العبادة .

فكان مشركو العالم - سواء من كان منهم في شبه الجزيرة العربية أو غيرها - يخضعون لأصنام وموجودات يعتقدون أنّها مخلوقة لله ، لكنهم مع ذلك يعتقدون أنّ بعض الأفعال الإلهية - كغفران الذنوب والشفاعة - موكلة إليهم .

(17) الأعراف : 28 .

كما كان بعض مشركي بابل يعبدون أجراماً سماويةً يعتقدون أنّها أرباب لهم - لا أنّها خالقة لهم - وإنما يعتقدون أنّها المدبرة لشؤونهم ، والمسيرة لهذا العالم ، وأن أمر الناس موكل إليهم ، ولهذا فإن مناظرة نبي الله إبراهيم الخليل (عليه السلام) مع مشركي بابل كانت على هذا الأساس ؛ فإنه لم يكن من عقيدة مشركي بابل أنّ الشمس والقمر والنجوم آلهة خالقة لهم ، وإنما كان من عقيدتهم أنّ الشمس والقمر والنجوم مخلوقات قادرة ، أوكل لها إدارة الكون وتدبير الأمور .

والآيات الكريمة التي ذكرت وبيّنت مناظرة نبي الله إبراهيم الخليل (عليه السلام) مع مشركي بابل اعتمدت واتّكأت على لفظة «الرب» ، وهي تعني «الصاحب» و «المدبر للمملوكات» . فالعرب يسمون صاحب البيت «رب البيت» ، وصاحب المزرعة «رب المزرعة» ، لأن تدبير أمور البيت على عهدة صاحبه وتدبير أمور المزرعة على عهدة صاحبها .

فالقرآن الكريم يصدع بأن الله سبحانه هو المدبر الوحيد للكون ، وبهذا فقد نهض الباري جل وعلا لمبارزة المشركين ، ودعاهم إلى عبادة الله وحده بقوله عز من قائل :

(إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)⁽¹⁸⁾ .
وقال في موضع آخر :

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)⁽¹⁹⁾ .

وقال في موضع ثالث :

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ)⁽²⁰⁾ .
وقال حاكياً عن لسان عيسى (عليه السلام) :

(وَ قَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ)⁽²¹⁾ .

فيعلم مما مضى بوضوح أنّه لا يمكن عدّ الخضوع الذي لا يقارنه اعتقاد الألوهية عبادة ، حتى لو كان في أعلى درجات الخضوع

(18) آل عمران : 51 .

(19) الأنعام : 102 .

(20) الدخان : 8 .

(21) المائدة : 72 .

والتدلل . وكذا نسبة الأفعال الإلهية إلى مخلوق معين لا يمكن
عدها عبادة ما لم تقترب باعتقاد الألوهية .

فعلى هذا الأساس لا يكون خضوع الولد أمام أبيه وأمه ، وخضوع
الأمّة أمام النبي (صلى الله عليه وآله) عبادة ؛ لفقدانه القيد
المذكور .

وبهذا يتضح الحال في كثير من المسائل نظير : التبرك بآثار أولياء
الله سبحانه ، وتقجيل أضرحة وأبواب مشاهد الأمّة والأولياء
والصالحين ، والتوسل بأولياء الله وأحبائه ، ونداؤهم ، وإحياء
ذكريات ولاداتهم ووفياتهم ، و... التي عدّها بعض الجهال من
الشرك ، مع أنه اتضح بما ذكرناه أنه ليست لها بالشرك صلة .